

المرأة في العراق

كان العراق مهد المدنية ولم يزل حتى اليوم مطمح انظار المتحدين ومطمع نفوس المحصرين وقلة آسأل السبايين ولكن قل من تصدى منهم لبحث عن المرأة العراقية وامعن في التفتيح عن منزلتها الادبية والاجتماعية . وقبل ان اعالج هذا الموضوع لا بد لي من كلمة عن العراق لما بين الديار واهلها من الارتباط . فالعراق يشتمل على سهول واسعة يجتريها دجلة والفرات ومن امهات مدنه بغداد والبصرة وفيه من المقامات الدينية الاسلامية ما يجلب اليه الحثين من اربعة اقطار المسكونة للزيارة والتبرك . وهو اهل بالسكان من كل ملة ونحلة من مسلمين ونصارى ويهود وصابئة وبنية وفيه كثير من الاوربيين للتجارة والتعليم . والدين في العراق ينصل بين السكان في الازياء والعادات ولهذا نضطر ان نقسم مقالنا الى ثلاثة اقسام نبحث في القسم الاول عن المرأة المسلمة وفي الثانية عن المسيحية وفي الثالثة عن الاسرائيلية . اما الصابيات والبايات فليس هن شأن كبير في العراق لقلتهن .

أ المرأة المسلمة

هي اما بدوية واما حضرية وبينهما فرق كبير في العادات والازياء والاخلاق . فالبدوية تنزع الى الاخلاق العربية البحتة فتخرج مسفرة الوجه بل ترائق الرجل الى ميدان الوعى وتنتف في تفسه الشجاعة والبسالة باغانيا الخماسية وتماليلها . وهي حنة للملاخ ربة القوام خفيفة الحركة تشغل الى عملها وتصل صباحها بمسائها في شغل البيت والمزرعة والسوق وتخذ فاتحة اعمالها طين الدقيق بالرحى التي تديرها بيدها . وبيننا نضن البرتقزم بالاغاني العربية اشجية والالخان المطربة تحفة لناشها . وتخبز الخبز وتعالج المناكسل وتنزل الصوف وترعى الماشية وتنقل الماء من النهر وان كان بعد عن محط رحل قبيلتها ضمة اميال . وتتم بيع الصوف والسمن واللبن والدجاج والبيض وما ضاهى ذلك من عاقي الماشية وحاصلات الارضين . وما اجمل منظر البدويات وهن حبات طيب البن خماس سداس على رؤوسهن مسرعات في سيرهن ساعات طوالا حتى يلقن المدينة فيمن احمان في الاسواق ويرجعن الى احيائهن في قر الشتاء وهاجرة الصيف . وترى الاحراية احبانا حامله طفلها على ظهرها او متكبيها فوق عيشها . ونساء البادية آيات النفوس لا يسفلن الى ما يشين آدابهن ويحط من شرف منزلتهن او ييحف بمفانهن لا بل يندر التهلك يئهن . والرجال عبر على الاعراض وعندهم ان الوصمة التي ندم الفاجرة بها ذوبها وبيتها لا تقى الا

بسفك دمها . وفي غزاة البديوية شيء من الذكاء النظري الذي إلا انها غرة جاهلة لا تقرأ ولا تكتب جاداً ولا تعرف شيئاً من اصول دينها وعقائدها . وتقدر على جهلها هذا لانها في يثمة قد ضرب الجهل اجنابة فيها وانما يكلفها طيبها لا مدرسة هناك ولا مصحف ولا قلم فينشأ الرجال والنساء في البادية على سنن واحد من الجهل والغبوة

والساطة شعارهن في لباس كما انها شعارهن في اسواقهن كلها ويتألف لباسهن من ثوب واحد فقط وليس لهن غيره من الالبسة الداخلة لونه اسود او نيلي طالك يدعونه « الدارية » ويتردن فوقه عباءة اسود يلتصق على رؤوسهن عند خروجهن من البيت وهو غليظ النسيج من صنعة الوطنيين ويتبعن بعضايب سوداء ايضاً . والموسرات منهن يتزين بجمل الذهب والفضة كالاساور والاقراط والحجرات والحزام والخرز والمرجان وانكهربا الصناعيين والدمالج الخزية التي ترد الى اسواق بغداد من النساء ومن زينتهن الوشم الازرق في كل اقسام الجسد . ولما ترى بنت البادية الا وفي جلدعا كثير من الوشم ويدعوه الاعراب « الدق » ويلفظونها « الدك » ويقولون ان الوشم يلبق بالجسد الناصع الياض ويستحسن في الاجسام العمراء

والرجل وحده حتى اختيار الزوجة فينطها الى ابيها وينقلعا مبراً يتراوح بين القليل والكثير بحسب مقام عشيرتها وحسبها ولا يسوغ لها ان تعرض على زوج بخاترة لها والدماء اما الحضرية العراقية من الطبقة العليا والوسطى فهي شديدة التحجب والحضريات من السواد يشبهن في عواطفهن واخلاقهن كل الشبه اخواتهن بنات البادية . ولكن اغلب الحضريات مخظات من حيث العلوم والمعارف وتدير المنزل الامن قد اشتهى بيها والداها اشتهاء حسناً وخروجها احسن تخرج في البيوت الخاصة او مدارس الراهبات . وقد يظن بعض الرجال ان تعليم سراً مدعاة الى الزندقة والشك ولكن الاسلام يجهن تعليم المرأة لا بل ينزله منزلة واجب وقد جاء في الاحاديث « ان العلم واجب على كل مسلم ومسلمة » و« علموا بانكم اليوم في التاريخ حياض بالارادة التي تروى بعد هذا الجهد في الاسلام ان كان في صدر الاسلام كثير من الصحابيات والناسيات وراويات الحديث والعالمات المتفقيات والشاعرات فوجود مثل هؤلاء النساء حجة لامة على صحة ما تقول . وملاص الحضرية لا تختلف كثيراً عن اختها البديوية الا في ياض البشرة وغضاضتها صانها مثل البيوت من سطوة اشعة الشمس وزادت الخضارة شيئاً من الترف والنعافة في ثيابها مما ليس للبديوية وملابس الحضريات تختلف اختلافاً بيناً في كل طبقة . تلبس نساء الفقراء ملابس

تصافي ملابس البدويات اما النتيات منهن فيلبس الصوف واقطن والحري والمشارف
 والبخارف والحلي من كل نوع من فضة وذهب وحجارة كريمة كالمناس والزبرجد والياقوت
 واللؤلؤ وغيرها . اما ازباؤهن فتختلف كل الاختلاف فمنهن من ينزعن الى الازياء العربية
 ومنهن من يفضلن الازياء الاوربية الحديثة الا انهن جميعاً لا يخرجن من بيوتهن الا
 محجبات مبرعات يتغطين بعباءة من حرير يلبسن ازاحد منها على المتكبين والظهر ويلقبن
 الآخر على رؤوسهن ويحرقن برفع حرير . ومن الازياء الوطنية « الزبون » وهو
 « القباذ » باهجة السوربين و« الجلاية » بلهجة المصريين . وعندهن « الهاشمي » وهو عبارة
 عن ثوب من قماش رقيق كل الرقة واسع الاكمام والاطراف تلبسه المرأة فوق « الزبون »
 فيش عماتحة وهو لباس لطيف بكسر المرأة جلااً وعلاها هيئة . والحضريات يجدلن
 شعورهن ويتركن على ظهورهن قصبتين او فصائب يوصلنها بقراميل من ذهب تدلى على
 ظهورهن لسمع لها صوت عند تيجتمهن . ومنهن من يخصن ايديهن وارجلهن بالحناء
 ويوشمن اجسادهن بالوشم الازرق . ومن عاداتهن شرب المنافع والفرجيلات والقهوة في
 المجتمعات وفي الافراد . ولهن في الزواج عادات كثيرة لا محل لذكرها هنا وانما تختزى
 بانقول ان زواج البنات بيد والديهن وليس لهن حرية انتقاء الازواج . ومن العادات
 الشائعة الطواف بجهاز العروس في الطرق والشوارع لتقدمه الموسيقى ويتبعه الطبل
 والازواج . وجهاز العروس يتألف من شيء كثير من اثاث وفرش وسجاد ومنصات ومصايح
 ولحيرات وغيرها . هذه العادة جارئة عند النصارى ايضاً الا انهم تفقوا عنها رويداً رويداً
 منذ بضع سنوات ولكن لم تزال آثارها باقية

٢ - المرأة النصرانية

حضارة مضطربة ومدنية لا صفة خاصة بها ولا مميزة عمرانية تمتاز بها . تلك حالة
 المرأة النصرانية الخلدانية التي تعد ارق نساء العراق وارتفعن منزلة في العلم والعرفان .
 يرجع الفضل في ذلك الى الزاهيات الفرنسيات اللواتي اسسن مدارسهن في بغداد منذ سنة
 ١٨٨٠ . ولم يزلن يداين في تثقيف البنات وتعليمهن اللغة العربية والفرنسية والضرب على
 البيان والحياطة والتطريز حتى ان كثيرات من بنات الفقراء يعلن ذواتهن بما يكنسهن من
 الرج من صناعة ايديهن . وقد شرعت الزاهيات في تدريس اللغة الانكليزية بنوع قانوني
 منذ احتل الانكليز بغداد . وهن ينزعن الى العادات والازياء الاوربية غير سميات
 ما كان صالحاً لبيئة العراق او ما كان غير صالح لها . والمرأة النصرانية العراقية تحب بيتها

وتحترم عشيرة زوجها وذويها وهي مطبوعة على الصفاء والوفاء في القول والصلح - صناع
تعمل الى تحصيل بيتها وتزويج ديوانها بنظام وترتيب عجيبين . وليس بين بنات النشأة
الجديدة في مدن العراق الاصليين بنت تجهل القراءة والكتابة واحول الدين النصراني-
والناشئة الجديدة تلبس اللباس الاوربي بكل متعلقاته الا البرنيطة تلبسها حديثات السن
فقط قبل ان يلفن سن الرشد وتلبس المراهقات والنساء الإزار العراقي من الصنعة
الوطنية - وهو مصنوع من حرير او حرير وقصب وتختلف الزان الازر ورسومها اختلافاً
كبيراً . واذا دخلت محفل نساء او كنيسة والتقت نظرة على مجتمعت خيل لك انك في حديقة
زاهية مزينة بالازهار . وتختلف قيمة هذه الازر من ليرة واحدة الى ٢٠ ليرة وربما تجاوزت
ذلك . وبما يصحك في زي المرأة النصرانية هو ان لباسها يكون على آخر طرز اوربي
فالروس مثلاً تتردى ثياباً بطابق زيهما ما في كتب الازياء التي تأتي من اوروبا ولا تغفل
ان تلبس القفاز الحريري الابيض والشار الابيض (Voile de mariage) وتحمل
باقة الازهار فتخرج بهذا الزي من بيت ابيا وتسير الطريق كله على هذه الصورة حتى بيت
عروسها . ولكنها تلبس ايضاً حجاباً (خفلاً) من ذهب في رحلتها . وتقص شعر راسها حسب
الزي الاوربي او تتركها قصبتين وتجديلها فراويل الذهب وهذا ايضاً من باب الجمع بين
التقدم العربي والاوربي . وتمصب النساء المتقدمات في السن رؤوسهن « بالحيانية »
او « اليازمة » وهي عصابة سوداء او ملونة . رزي المتقدمات في السن يتزع الى الزي
الوطني اكثر منه الى الزي الاوربي

ولا تعجب المرأة النصرانية في هذا العصر خلافاً لما كانت عليه قبل قرن بل تستقبل
الرجال في ديوانها ومجالسهم وتخطبهم ويدور معظم حديثها على المحي وحوادث المدينة
وادارة البيت وتطرق احياناً الى الاخبار السياسية ان سمعت منها شيئاً من افواه الرجال .
وهي نصيحة اللهجة فتنة اللسان تحسن وصف الوقائع والمناظر وتحوز القدر المثلّي في الانتقاد .
وفواعنى اولو الامر بناتنا اتيح دهنن نابقات وكاتبات شاعرات . وتجييز آداب المتعاشرة
عند نصارى بغداد رقص النساء مع الرجال في حلقه عمومية في حفلات الاعراس

ولا حاجة للقول ان الزواج عند نصارى بغداد يكون باتفاق الابنة مع ذويها على
شاب تعرفه وقد جالسته طويلاً خلافاً لما كانت عليه العادة قبل بضعة عقود من السنين .
ولم تدخل عادة الباننة (الوسطة) عندما بل يكتفي الامل بتهييز ابنتهم بشباب كثيرة
واناث ربحا كان اغلبه ليس من الضروري ويهدي الاغنياء الى ابنتهم بعض الخلق والرجل

جدي إليها أيضاً من الخلى ما يختلف باختلاف منترك وثروته

وفي بغداد جالية من نصارى النورسل ككشكليف والقوش ويحشيتا ويطنايه وغيرها وبلغ عدد هذه الجالية ستة آلاف شخص وهم اربعة اقسام نصارى بغداد الرطنيين ويختلفون عن الرطنيين في اخلاقهم وعاداتهم وازياهم ولغتهم اذ يتكلمون الكلدانية العامية وهي مزيج من الكلدانية والعربية والكرديّة والتركية . وتلبس نساؤهم لباساً خاصاً بهن يشبه لباس نساء بيت لحم وكنّ عادات كثيرة في الاعراس والماثم وهذه الجالية طيبة السريرة ذكية الفطرة ومنذ هبوطها بغداد حتى اليوم (أي منذ نحو نصف قرن) تقدم عدد غفير منها في سبيل الرقي حتى ضاهوا اهل بغداد في اللباس والمادات والعرقان والاخلاق

٣ المرأة الاسرائيلية

عدد يهود بغداد نحو مئتين الف نسمة يرثي تاريخهم الى سبي بابل . ومنهم من نزل العراق بعد ذلك العهد العميد ولنا كلام في تاريخ يهود العراق منشرة يوماً على صفحات هذه المجلة . بقيت المرأة الاسرائيلية في بغداد منخطة الشأن خاملة المنزلة حتى اوائل القرن التاسع عشر وكانت جميع النساء متحجبات لا يجالس الرجال ويلبسن لباساً خاصاً بهنّ وجسديهنّ حتى قبض الله للقوم جمعية الاتحاد الاسرائيلي الفرنسية فانشأت مدرسة لبناتهن ورفعت شأن المرأة الاسرائيلية البغدادية من حضيض الانحطاط العلمي الى بعض الرقي الا ان هناك فترحة رثمة وموران المدرسة الواحدة غير كافية يرقى جميع الاسرائيليات فعسى ان يهتم مرارة القوم بحالة بناتهن اقتداءً بسيدة فاضلة منهم هي السيدة لورا خضوري التي تبرعت بتبلغ ٧٠٠٠٠٠٠ فرنك لتشييد مدرسة البنات وهي بناء فصيح متين الهندسة محكم البيان

ان النساء اليهوديات من العائلات الوسطى والسفلى بتعاطفين كثيراً من المهين للارتفاق فنهين من يجهلن الى بيوت الطريح الخلى والمجوهرات والمبوسات وغير ذلك ومنهن من يطرزن بخيوط النفسة او الذهب وبقصين بالقصب حواشي النبي او بطرزن خيوط «الشعري» التي ترد من الهند . والنوطة جارئة عند اليهود فاذا كانت الابنة التي يراد زواجها جميلة الصورة كانت دوطةم اقبيلة والأزبدت دوطتها . وعند اليهود دلال خاص بمشكلة الزواج يحسم مقدار الدرطة ويقدم المقابلة بين المتزوجين . وللاسرائيليات المنحطات عادات وادام وخرافات تفصلك الشكوى ويضرب بها المثل هنا يوسف رزق الله غنيمة